قصة العدد

روايات مصرية للجيب

•

كتاب الصيف

•

أشباح ولكن ..

د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس ٦٨٢٧٠٠٦٠

١ ـ الخــــوف ..

● تُرى هل تؤمن بوجود الأشباح ؟!

سؤال لابـد وأن يتصدَّر هـذا الموضوع ؛ لأنـه وبكل بساطة ، الأساس الذى سيُبنى عليه كل ما ستقرؤه من صفحات قادمة ..

فكلمة (أشباح) كلمة غير محدَّدة الملامح ، على عكس ما قد يتصورَّ البعض ؛ إذ إن معظم النـاس يربـط بينهـا وبيـن أرواح الموتى ، التى تعود إلى عالمنا ، على نحو أو آخر ، للقيام بعمل ما ، لم تتمه فى حياتهـا ، أو للانتقام من شخص أو أشخاص ، كانوا السبب فى مصرعها ، أو مغادرتها دنيانا قبل الأوان ..

وهذا ليس رأيى الشخصى ، أو حتى رأيًا علميًّا ، أو نتاجًا لدراسات روحانية ، وإنما هو مجرَّد الصورة ، التى تنقلها لنا روايات الرعب والخيال ، وأفلام السينما الأوروبية قبل الأمريكية ..

وعلى الرغم من روح الاستنكار ، والاستهجان ، وربما السخرية ، التى ستواجه الكلمات القادمة ، إلا أنه هناك عددًا أكبر مما تتصوَّرون من العلماء ، والمتابعين ، والمهتمين بتقصِّى أثر الأشباح ، والسعى خلفها ، والقتال من أجل إثبات وجودها ، بشكل أو آخر ..

وبالنسبة لكل المهتمين بالأمر ، لا يقتصر مصطلح الأشباح على الموتى وأرواحهم فحسب ، بل ويمتدّ أيضًا إلى الأماكن ، والسفن ، وبعض الظواهر الغريبة أيضًا ..

ومن المؤكَّد أن العامل الوحيد ، الـذى يربـط بيـن كـل هـذه الظواهر والأشياء ، هو الخوف ..

الخوف البشرى من كل مجهول ..

كل غامض ..

وكل خفى ..

فالناس ـ بطبعهم ـ أعداء ما يجهلون ، وأعدى أعداء ما يخافون ، وكلما ازداد ما أمامهم غموضًا وتخفيًّا ، تضاعف خوفهم منه وهلعهم من مواجهته ..

وهذا بالضبط ما يضاعف من قوته وتأثيره ..

وبلا حدود ..

تمامًا مثل الحجرة المظلمة المغلقة ، التى يخشى الكل فتحها ودخولها ، ويهاب الكل مجرَّد الاقتراب منها ، وتحاك حولها القصص والروايات والأساطير ، التى تحوِّلها إلى هرم من الرعب وبرج من الخوف ، على الرغم من أننا ، لو جازفنا وفتحنا بابها ، لوجدناها مجرَّد حجرة فارغة مهجورة ، لا تحوى إلا الأتربة والغبار والحشرات ، التى لا تصلح حتى لإخافة الأطفال ، ما لم يكن مطلوبًا منهم تنظيفها ..

ولكن إيماننا أو عدم إيماننا بوجود الأشباح والعفاريت وغيرها ، لن يمنعنا من الاعتراف بأنه هناك عشرات وعشرات من الظواهر

الغريبة ، المسجَّلة فى الكتب القديمة والحديثة ، والتى روَّجت لمصطلح (الأشباح) ، وردَّدته فى أنحاء العالم أجمع ، من أقصاه إلى أقصاه ..

ففى (روسيا) القديمة مثلاً ، وبالتحديد فى (توبولسك) فى ليلة شديدة البرودة ، من ليالى شتاء عام ١٩١١م ، كان الراهب (ديمترى) منهمكًا فى قطع كومة من جذوع الأشجار ، لتغذية المدفأة ؛ وضمان الدفء المطلوب ، عندما سمع من خلفه حفيفًا ناعمًا ، لثوب ينزلق على الجليد ، فاستدار إلى مصدره ، ووقع بصره على أجمل امرأة يمكن أن تراها عيناه ، فى مكان كهذا ..

امرأة شقراء ، فاتنة ، بيضاء البشرة ، ترتدى ثوبًا من الحرير ، مطرزًا بقطع من اللؤلؤ والأحجار الثمينة ، وتسير على الثلوج ، وتحت الجليد المنهمر ، فى خفة ورشاقة ، وكأن قدميها لا تمسَّان الأرض مسًا ، وكل لمحة فى وجهها توحى بالنبل وعراقة المحتد ..

وفى انبهار كامل ، وقف الراهب (ديمترى) يحدِّق فى الفاتنة الشقراء ، التى توقَّفت على مسافة أمتار قليلة منه ، وتنحنحت فى رقة ، قبل أن تسأله فى صوت خافت :

ـ معذرة أيها السيِّد ، ولكن هل يمكن أن ترشدنى إلى طريق العربات .

لم يكن هناك وجود لطريق عربات فى (توبولسك) ، ولا حتى للمصطلح نفسه ، إلا أن الراهب (ديمترى) أشار إلى الطريق

الذى تسلكه جياد البريد ، وهو يجيب بصوت خافت مبحوح ، من فرط الانبهار :

ـ هذا الاتجاه يا سيِّدتى .. على بعد كيلومترين تقريبًا .

رفعت يدها إلى جبهتها ، فى رقة وتهالك ، قائلة :

ـ آه .. كيلومترين كاملين ؟!

كان من الواضح أنها منهكة مرهقة بشدة ، إذ كان وجهها شاحبًا أكثر مما ينبغى ، كما لمح الراهب خيطًا رفيعًا من الدم ، يسيل من عنقها ، فهتف :

ـ سيِّدتى .. يمكنك الحصول على قدر من الراحة هنا ، حتى يتوقَّف انهمار الجليد ، و ..

قاطعته ، وهى تشير بيدها ، قائلة :

ـ لا .. لا يمكننى هذا .

كانت تترنَّح بشدة ، وعلى الرغم من هذا فقد واصلت طريقها إلى الاتجاه الذى أشار إليه الراهب ، قائلة :

ـ أشكرك أيها السيِّد .. أشكرك كثيرًا .

تمنى الراهب (ديمترى) لو تقبل ضيافته لبعض الوقت ، حتى تداوى جراحها على الأقل ، أو يتوقَّف انهمار الجليد ، إلا أنه لم

ينبس ببنت شفة ، وكأن قوة ما قد عقدت لسانه ، حتى تجاوزته الفاتنة الشقراء ، بنفس الخفة المذهلة ، وعيناه تحدقان فيها بمنتهى الانبهار والدهشة ..

بل والخوف أيضًا ..

فمع مرورها أمامه ، لاحظ الراهب أن خيط الدم لا يسيل من جرح واحد فى عنقها فحسب ، وإنما من قاعدة عنقها كلها ، وكأنما انفصل الرأس كله عن الجسد ، ثم عاد يلتصق به بوسيلة ما ..

وفى هدوء مدهش ، ونعومة لا حدود لها ، واصلت الشقراء طريقها ، حتى اختفت وسط أشجار الغابة المظلمة ..

وهنا .. هنا فقط ، انتفض الراهب (ديمترى) ، وكأنه يستيقظ من حلم عجيب ، وحدَّق فى الجليد الذى يغمر المكان من حوله ، وقلبه يخفق فى عنف ؛ لأن ذلك الجليد لم يحمل أثر قدمى الفاتنة ، أو حتى أثر ثوبها الطويل ..

وفى هذه اللحظة ، انتبه (ديمترى) إلى أنه كان هناك شىء غير طبيعى فى تلك الشقراء ، لم ينتبه إليه فى حينه ..

لم تكن هناك ذرة واحدة من الجليد على كتفيها أو رأسها ، على الرغم من الجليد المنهمر فى غزارة ، منذ منتصف النهار ..

وفى غمرة انفعاله ، نسى الراهب (ديمترى) أمر الأخشاب والنار والدفء ، كله وأسرع إلى مكتبه الصغير ، ليدوّن لنا هذه الواقعة العجيبة ، وكلماته ترتجف مع قلمه ، ومع جسده كله ..

ولم يكتف (ديمترى) بذكر الواقعة ، وإنما أضاف إليها فى اليوم التالى أنه قد أجرى بعض تحرياته ، فى المنطقة المحيطة به ، ليعلم أن قطاع الطرق قد استوقفوا واحدة من النبيلات ، واستولوا على عربتها الفخمة ، بعد أن قتلوا سائقها ، وحارسها ، وقطعوا عنقها ، وسرقوا كل مجوهراتها ..

وكان الوصف ينطبق تمامًا على الفاتنة الشقراء ، التى رآها بعينيه فى الليلة السابقة ..

وكانت هناك نقطة أكثر إثارة ، فى قصة النبيلة القتيلة ..

نقطة أكثر من عنقها المقطوع ، الذى رآه (ديمترى) بعينيه ..

هذه النقطة هى أن الواقعة قد حدثت قبل مائة عام بالضبط ، من رواية الراهب لها ..

وهذا ما سجّله بنفسه فى يومياته ، وهو يرتجف أكثر وأكثر ..

ولقد التقط المهتمون بدراسة ظاهرة الأشباح يوميات الراهب (ديمترى) ، واعتبروها دليلاً على وجود الأشباح ، أما المعارضون فقد استنكروا ما جاء بها بشدة ، واعتبروه مجرَّد تخريف من راهب عجوز وحيد ، فى ليلة باردة مظلمة ..

وهنا كان لابد من فحص ملف الراهب ، الذى لم يتجاوز بالمناسبة السادسة والأربعين من عمره ، يوم كتب يومياته ، كما أنه كان شخصًا

محترمًا فى (توبولسك) ، لايشرب الفودكا ، أو حتى الشاى والقهوة ، وبحكم موقعه لا يكذب ، أو يسعى للتباهى أبدًا .

ثم إنه لن يخاطر بسمعته ومصداقيته ، من أجل رواية عجيبة ، ستجر عليه من المشكلات ، أضعاف أضعاف ما يمكن أن تجلبه له من منفعة ..

أضف إلى هذا أنه لم يفهم لماذا ظهر له ذلك الشبح ، الذى لم يظهر مرة أخرى قط !!

ماذا كان يريد منه ؟!

وما هدف ظهوره ، بعد قرن كامل من الزمان ، وفى هذا المكان بالذات ؟!

أهى مجرَّد محاولة لإحياء ذكرى الحادث نفسه ؟!

أم مجرَّد عبث أشباح ؟!

(ديمترى) لم يجد تفسيرًا فى زمنه ، وكل الباحثين لم يجدوا تعليلاً فى زمنهم وزمننا ..

ولكن الواقعة مسجَّلة ..

وهى ليست الواقعة الوحيدة فى هذا الشأن ..

هناك واقعة أخرى ـ مسجَّلة أيضًا ، وتشبه هذه الواقعة إلى حد مدهش ..

وما نقصده هنا هو تلك الواقعة العجيبة ، التى حدثت فى قصر (فرساى) ، عام ١٩٠١م ، أى قبل عشر سنوات تقريبًا ، من واقعة الراهب (ديمترى) ..

الواقعة التى ظهرت فيها أشهر ملكات (فرنسا) ، فى نفس المكان الذى شهد لحظاتها الأخيرة قبل ما يزيد على مائة وثمانية أعوام ..

الملكة (مارى انطوانيت) ..

ولهذا قصة أخرى عجيبة ..

ومثيرة ..

إلى أقصى حد .

★ ★ ★

٢ ـ شبح الملكة ..

• من الأمور الطبيعية ، بالنسبة لكل سائح يفد إلى (فرنسا) ، أن يسعى لزيارة قصر (فرساى) ، ذلك الذى شهد قيام واندلاع الثورة الفرنسية ، عام ١٧٨٩ م ..

ولقد كان هذا أول ما فعلته (روز) و (إلزا) ، الفتاتان الانجليزيتان ، اللتان زارتا (فرنسا) لأول مرة ، عام ١٩٠١ م ..

كانت كلتاهما تعلم الكثير عن الثورة الفرنسية ، باعتبار أن الأولى متخصصة فى اللغة الفرنسية ، والثانية مدرسة تاريخ ..

وفى قرية (فرساى) ، زارت الإنجليزيتان قصر (تريانو) الكبير ، ثم انتقلتا إلى قصر (تريانو) الصغير ، الذى اتخذته الملكة (مارى أنطوانيت) مقرًا لها ، فى أيامها الأخيرة ، والذى يعرف حتى اليوم باسمها ، على الرغم من أن (لويس الخامس عشر) قد بناه لاثنتين من عشيقاته ، بلغت شهرتهما التاريخ أيضًا ، ألا وهما (مدام دى بارى) ، و(مدام بومبادور) ..

وفى القصر الصغير ، راحت (روز) و(إلزا) تجولان ، وقد أحاط بهما جو صامت ساكن عجيب ، كما لو أنهما يعيشان حلمًا وليس واقعًا ، على الرغم من الأشجار والورود الجميلة ، التى تحيط بهما من كل جانب ..

فحولهما ، كانت توجد بيوت وأكواخ صغيرة نظيفة ، ورجال الحراسة كانوا يمرّون بهما ، فى ملابس خضراء ، وقبعات عجيبة مثلثة ، كما أن النساء كن يرتدين ثيابًا أطول مما ينبغى ، على نحو لا يتناسب مع موضة العصر ..

ثم كانت هناك تلك الحركة العجيبة فى كل مكان ، فالخدم يجرون ويلهثون فى كل مكان ، وبعض الأصوات العصبية تتناثر بلا وضوح ، هنا وهناك ، دون أن يميِّزا منها سوى صرخة واحدة :

ـ الرعاع قادمون .. سيداتى .. الرعاع قادمون .

وعلى الرغم مما يوحى به هذا من هرج ومرج ، لم تحاول الإنجليزيتان الفرار أو الابتعاد ، وإنما اتجهتا نحو كوخ أحمر صغير ، فى بداية الغابة ، حيث وقع بصراهما على رجل مخيف ، يرتدى معطفًا أسود ، وقبعة مثلثة مماثلة ، فغادرتا المكان فى سرعة ، وعبرتا جسرًا صغيرًا ، وشلالاً من المياه ، قادهما إلى قصر (تريانو) الصغير ..

وفى شرفة القصر ، بدت لهما سيِّدة رقيقة جميلة ، ترتدى ثوبًا أبيض اللون ، رقيق المظهر ، هفهافًا على نحو مدهش ، ولكنه لا يتناسب قط مع موضة عام ١٩٠١م ..

كانت سيِّدة فى حوالى الأربعين من عمرها ، ولقد أدارت عينيها إليهما ، وتوقَّفت عن رسم لوحة زيتية أمامها ، ومنحتهما ابتسامة هادئة ، قبل أن ترفع يدها إلى عنقها ، وتسعل سعالاً خفيفًا ..

ولسبب ما ، شعرت (روز) و(إلزا) بضيق فى صدريهما ، فرفعتا يديهما إلى عنقيهما ، تمامًا كما فعلت السيِّدة ، وسعلتا لنصف دقيقة ..

وعندما هدأت نوبة السعال هذه ، كانت المرأة قد اختفت من الشرفة ، وكان كل شيء قد غرق فى صمت مهيب مخيف ، جعل الفتاتين تهرعان خارج المكان ، وتندمجان مع بعض السكان المحليين ، قبل أن تعودا إلى فندقهما فى المساء ..

وفى الفندق ، صارحت كل منهما الأخرى بأنها قد شعرت بخوف مبهم يملأ كيانها ، فى ذلك القصر ، وبشعور غامض رهيب ، كان يدفعها للفرار من المكان كله بأى ثمن ..

وسجّلت الفتاتان الواقعة ، ونشرتاها فى صحيفة لندنية محلية ..

ولم يصدقهما أحد ..

ويمكننا القول بأنهما أيضًا لم تصدقا نفسيهما ، مما دفعهما إلى السفر مرة أخرى إلى (فرنسا) ، وإلى (فرساى) ، للتأكُد مما رأتاه هناك ..

وهنا كانت المفاجأة المدهشة ..

فلا شيء كان كما شاهدتاه فى المرة السابقة قط ..

لا أكواخ ، أو كوخ غابة ، أو حتى شرفة مفتوحة فى القصر ..

بل إن الباب ، الذى قادهما إلى تلك الشرفة كان مغلقًا منذ سنوات طوال ، ولم يُسمح لأحد بعبوره قط ..

الأعجب أن كل الأكواخ قد أزيلت منذ عشرات السنين ..

ورجال الحرس لم يرتدوا الملابس الخضراء قط ، منذ أيام الثورة الفرنسية الأولى ..

فما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

ما الذى رأته الانجليزيتان (روز) و(إلزا) ، فى أكتوبر ١٩٠١م بالضبط ؟!

السؤال دار برعب ، فى رأسى الفتاتين ، فهرعتا إلى خبير متخصِّص فى تلك الفترة من تاريخ (فرنسا) ..

وبالعودة إلى الخرائط القديمة ، تبين أن كل ما رأته الفتاتان كان موجودًا ، بنفس الوصف ونفس الكيفية ، فى عام قيام الثورة الفرنسية ، ١٧٨٩م ، أى قبل زيارة الإنجليزيتين للمكان بمائة واثنتى عشرة سنة بالضبط ..

وعندما عرض الخبير على الفتاتين صورة الملكة (مارى أنطوانيت) ، شهدت كلتاهما فى رعب ، وصرختا فى آن واحد :

ـ إنها هى .

فالصورة كانت تتطابق تمامًا مع تلك المرأة ذات الرداء الأبيض ، التى رأياها ترسم لوحتها فى الشرفة ، والتى قال التاريخ عنها إنها كانت ترفع يدها إلى صدرها ، وتسعل ، إذا ما رأت شخصًا غريبًا ، أو أثار شيء ما أعصابها ..

وامتلأت الفتاتان بكل رعب الدنيا ..

فما يحدث يوحى بأنهما قد رأتا الملكة (مارى أنطوانيت) ..

أو شبحها ، لو شئنا الدقة ..

ليس هذا فحسب ، وإنما شاهدتا أشباح حراسها ، وخدمها ، وحتى حارس جيادها الخاص ، ذى المعطف الأسود ..

ولقد رفضت الإنجليزيتان نشر روايتهما لسنوات وسنوات ، على الرغم من إلحاح الخبير ، وإصرار المهتمين بهذه الظواهر الخارجة ، ولم تنجح المحاولات إلا فى عام ١٩٣١م ، إذ كانت كلتاهما تخشى أن تتهم بالجنون ، أو الكذب ، أو السعى للشهرة ..

ولقد حدث ما توقعتاه بالفعل ..

عاصفة من الاتهامات انهالت عليهما ، بعد نشر القصة ، على الرغم من رأى الخبير ، وآراء المتخصصين ، الذين فحصوا الأمر ومحصوه ، لأكثر من ربع القرن ، قبل أن يتم نشره على العامة ..

وكما يحدث فى معظم الأحوال المماثلة ، تكون موجة التكذيب أكثر قوة وعنفًا ؛ نظرًا لأن مثل هذه الأحوال تفتقد أهم عامل من عوامل الإقناع ..

الدليل المادى ..

ولكن ماذا عن شهود العيان ، الذين تعتبرهم كل محاكم الدنيا أدلة مادية ، تستوجب اتخاذ قرار حاسم ، وإصدار حكم نهائى ؟!

ففى القصة التالية سنجد أمامنا عشرات الشهود ، على واقعة ظهور شبح ، وكلهم سجلوا شهادتهم على الورق ..

وبالصور أيضًا ..

والشبح هذه المرة لفتاة أخرى من النبلاء ، كان والدها عضوًا بمجلس العموم البريطانى وشقيقها (روبرت والبل) رئيسًا لوزراء (بريطانيا) ..

ومشكلة تلك الفتاة (دورثى) ، هى أنها عاشت حياتها بالطول والعرض ، وبكل الزوايا الممكنة أيضًا ، منذ حداثتها ، وحتى بعد زواجها من الفيكونت (شارلز توسند) ، الذى جن جنونه منها ، فراح يهاجمها ويعذبها ، حتى أصابها بالجنون ، الذى جعلها تشنق نفسها فى برج القصر ، وهى ترتدى ثوبها الأخضر ، أفضل الأثواب إلى قلبها ، فى عام ١٧٢٦م ..

ولقد ارتبط موت (دورثى) بموجة من الغضب والاتهامات المتبادلة ، بين شقيقها وزوجها ، تصاعدت لبعض الوقت ، ثم لم تلبث أن تكسَّرت وهدأت ، كأية موجة أخرى ، واندثرت قصة موت (دورثى) بين صفحات الكتب ، ونسيها الناس مع مرور الوقت ..

حتى عام ١٧٨٦م ..

ففى ذلك العام ، نزل الملك (جورج الرابع) ضيفًا على القصر ، ونام فى حجرة (دورثى) القديمة ، إلا أن الكل استيقظ على صرخات

الملك ، فهرعوا إلى الحجرة بمشاعلهم ، ليخبرهم وهو مرتجف ، أنه فوجئ بسيِّدة ترتدى ثوبًا أخضر اللـون ، تتمدَّد إلى جواره علـى الفراش ، ولما حاول إيقاظها ، التفتت إليه بعينيـن سـوداويين مخيفتين ، ثم اختفت دفعة واحدة ، دون أن تترك خلفها أثرًا ..

وكإجراء طبيعى ، تم تفتيش القصر كله ، حتى مطلع الشمس ، ولم يعثر الحراس على أدنى أثر لصاحبة الفستان الأخضر ، حتـى سمعوا الملك يطلق صرخة ذعر أخرى ، فأسرعوا إليه ، ليروه وهو يشير إلى لوحة معلَّقة على الجدار ، هاتفًا بلهاث عجيب :

- إنها هى .. إنها هى ..

وكان يشير إلى لوحة تحمل صورة (دورثى) ..

ودون مناقشة ، غادر الملك القصر ، وأقسم ألا يعـود إليـه مـرة أخرى ..

ومنذ ذلك الحين ، راحت ذات الرداء الأخضر تظهر فى القصر ، كل حيـن وآخر ، ويراها الحراس فـى كل مكـان ، وهـى تجـوَّل ، وتبتسم لهم ، وتثير خوفهم ، دون أن تقترب منهم ، أو تمسَّهم بأدنى سوء ..

وراح الحراس يهربون من القصر ، ويتم استبدال آخرين بهـم ، فكانوا يفرون بدورهم ، وهكذا ، طوال قرن كامل من الزمان ..

ففى عام ١٨٨٦م ، سئم ورثة القصر من كل ما يحدث ، فقرَّروا

الاستعانة بواحد من أشهر المغامرين فى عصرهم ؛ لحسم الأمـر ، وإزالـة الشـائعات عن شـبح قصرهـم ، ووعـدوا بمنحـه مقـابلاً ضخمًا ، لو نجح فى هذا ..

وجاء المغـامر ، وجـاب القصر كلـه بصحبـة رجالـه ، ثم طلب تغيير أقفال ومفاتيح كل الحجرات ، قبل أن يقضى ليلته هناك ، ثم سخر من كل المعتقدات القديمة ، وأعلـن أنـه لا يؤمـن بالأشباح ، وراح يلقى الدعابات ، حتى جاء الليل ..

وكانت ليلة ليلاء ..

بحق .

★ ★ ★

٣ ـ شبح القصر ..

• لم تكد شمس ذلك اليوم ، من أيام عام ١٨٨٦م تغيب ، حتى استعد المغامر البريطانى الشهير ، مع طاقم رجاله ، لتفقُّد القصر ، بكل حجراته وأبراجه وأقبيته ، قبل الجلوس لتناول العشاء ..

وفى ذلك الحين ، كان هذا الأمر يحتاج إلى ساعتين على أقل تقدير ..

وطوال الساعة الأولى ، بدا كل شىء هادئًا عاديًّا ، على نحو يدعو للاطمئنان ، وبدا القصر هادئًا ساكنًا ..

ثم فجأة ، حدثت جلبة واضحة ، فى الطابق السفلى ، حيث حجرات الخدم والمطبخ .

وبسرعة ، هرع المغامر ورجاله إلى المكان ، قبل أن تتسع عيونهم جميعًا ، فى دهشة بلا حدود ، وهم يحدقون فى سيِّدة ذات ثوب أخضر ، تقف فى وسط المطبخ تمامًا ، وتتطلَّع إليهم بابتسامة تحمل لمحة من السخرية ، قبل أن تتجه إلى الباب الخلفى ، وتعبره فى هدوء تام مستفز ..

ولثانية أو ثانيتين ، تجمَّد الكل فى أماكنهم ، قبل أن يهتف بهم المغامر :

ـ الحقوا بها .

وأسرع رجاله يعبرون الباب الخلفى ، وينتشرون فى حديقة القصر ؛ لينبشوا كل شبر فيها دون جدوى ..

وعاد الرجال بخفى حنين وبرجفة فى قلوبهم ، أفقدتهم شهيتهم تمامًا ، وهم يلتفون حول مائدة العشاء ، مما دفع المغامر إلى محاولة التسرية عنهم ، بأن راح يروى بعض المواقف الطريفة ، التى واجهته فى مغامراته السابقة ، و ...

وفجأة ، بتر هو نفسه عبارته تمامًا ، وهو يحدِّق فى نهاية المائدة ، مما دفع الكل إلى الالتفات إلى حيث ينظر ..

ثم انطلقت الشهقات من الحلوق ..

فهناك ، عند نهاية المائدة ، كان شبح ذات الرداء الأخضر يجلس فى هدوء ، وعلى شفتيه ابتسامة كبيرة ، وكأن (دورثى) أيضًا تستمتع بروايات المغامر ..

وتجمَّد الموقف كله لدقيقة كاملة أو يزيد ، والعيون كلها تحدِّق فى ذات الرداء الأخضر ، التى لم تلبث أن أطلقت ضحكة بلا صوت ، ثم نهضت من مقعدها ، واتجهت نحو الباب ، ثم اختفت فجأة ..

وغادر المغامر ورجاله القصر ، قبل مطلع الشمس ، دون أن يحصل على مكافأته ، أو حتى يطالب بها ، على الرغم من سمعته القوية ، التى تؤكِّد أنه واحد من أشجع الرجال فى عصره ، وأكثرهم جرأة وصرامة ..

ومن حسن الحظ أنه قد دوَّن القصة كلها ، وأضاف إليها شهادة رجاله ، الذين وقَّع كل منهم باسمه ، لتوثيق روايته وتأكيدها ..

واختفت ذات الرداء الأخضر لبعض الوقت ، وتصوَّر الكل أنها قد اكتفت بما فعلته بأشهر مغامرى ذلك الوقت ..

إلا أنه فى عام ١٩٢٦م ، كان ولدان يلعبان ، بالقرب من القصر ، عندما مرَّت بهما سيِّدة ذات ثوب أخضر ، ومنحتهما ابتسامة كبيرة ، ثم انحنت تربِّت على رأس أحدهما ، فلم يشعر بلمسات أصابعها ، مما أصابه ورفيقه بالرعب ، فانطلقا يعدوان إلى منزليهما ، وهما يرتجفان ارتجافات باردة كالثلج ، ورويا قصتهما لأسرتيهما ، دون أن تكون لديهما أدنى خلفية عن قصة ذات الرداء الأخضر وتاريخها ..

وهنا ، قرَّر أحفاد ورثة القصر حسم الأمر تمامًا ، فاستعانوا هذه المرة بفريق من المصورين ، فى ١٩ سبتمبر ١٩٣٦ م ، مع عدد من المهتمين بدراسة ظاهرة الأشباح والظواهر الغامضة ..

ولم تخيب ذات الرداء الأخضر أملهم ، فظهرت عند منتصف الليل ، وهى تهبط فى سلالم القصر ، ووقفت أمامهم لربع ساعة كاملة ، التقطوا لها خلالها عشرات الصور المباشرة ، التى تم عرضها فى إحدى المجلات المحلية ، فى ١٦ ديسمبر من العام نفسه ، وإن لم يظهر فيها سوى طيف أخضر بلا ملامح ..

ولكن الطاقم كله شاهدها ، وسجَّل شهادته رسميًا ، مما دفع

مصورًا سينمائيًا آخر ، إلى القيام بالمحاولة نفسها ، فى الثالث والعشرين من أبريل ١٩٤٦م ، عندما استخدم آلة تصوير سينمائية ، سجَّل بوساطتها فيلمًا مدته نصف الساعة لذات الرداء الأخضر ، التى بدت أيضًا مجرَّد طيف بلا ملامح ..

واختيار يوم الثالث والعشرين من أبريل لم يكن عشوائيًا أيضًا ، وإنما لأن هذا اليوم بالذات ، يُطلق عليه اسم (يوم الأشباح) ، وفقًا لأسطورة قديمة ، تقول إن الأرواح كلها تعود إلى الأرض فيه بالتحديد !

ولا أحد يدرى لماذا هذا اليوم بالذات ؟!!

المهم أن ذات الرداء الأخضر شاهدها العشرات ، وصوَّرتها آلات التصوير العادية ، والسينمائية ، وعلى الرغم من هذا فقد رفض المعارضون الاعتراف بالأمر ، باعتبار أن الصور والأفلام لم تحمل أية ملامح واضحة ، ثم إنهم طرحوا تساؤلاً جديدًا ، وهو لماذا تظهر ذات الرداء الأخضر أو يظهر غيرها من الأشباح ، ما داموا لا يحققون بظهورهم هذا هدفًا واضحًا ؟!

والواقع أنه تساؤل مهم جدًا ، بالنسبة لهذه النوعية من الأشباح بالذات ، إذ إنها تظهر دومًا لإعلان وجودها فحسب ، وكأنها أشباح مصابة بعقدة التباهى فحسب !!

وللباحثين فى هذا المجال رأى وتفسير لهذا الأمر ، إذ يؤكدون

أن ما نراه هنا ليس نوعًا من الأشباح ، وإنما هو تجسيد لمشاعر أو انفعالات ، كانت من العنف والقوة عند أصحابها ، إلى الحد الذى جعلها تبقى فى المكان ، حتى بعد رحيلهم عن عالمنا ..

بمعنى أكثر وضوحًا ، أننا ، عندما ندلف إلى المكان ، الذى يحمل ذكريات مشاعرهم القوية هذه ، تلتقط حواسنا تلك المشاعر المختزنة ، فنرى أشباحهم ، أو نحيا لحظات ذكرياتهم ..

وقد يبدو هذا التفسير منطقيًا ، لولا أن آلات التصوير تستطيع أحيانًا تصوير الأشباح ، ولن يمكنها بالطبع التقاط صور المشاعر والذكريات ..

ولكن ربما تنطبق هذه النظرية على بعض الحالات ، التى يقتصر فيها الأمر على الشعور دون الرؤية ، كأن تتواجد فى مكان ما ، فتشعر فيه بالانقباض ، أو بالانشراح ، أو بالقلق ، أو حتى بالخوف ..

وللكاتب المصرى (سعيد إسماعيل) تجربة فى هذا الشأن ، عشت مثيلاً لها بنفسى ، فى أثناء عملى فى محافظة (قنا) المصرية ، عندما استأجرت حجرة فى فندق بسيط ، وقضيت فيها ليلة لن أنساها ما حييت ..

كانت حجرة بسيطة عادية ، ما دامت الأنوار مضاءة ، ولكن ما إن اطفئ الأنوار ، حتى أشعر وكأننى لست وحدى ..

بل أشعر وكأنى وسط ميدان مزدحم ، يموج بالحركة والنشاط ، فهناك أشخاص يروحون ويجيئون ، وآخرون يتحدثون من بعيد ، ويتشاجرون ، ويتناقشون ..

وأنهض لأشعل الأضواء ، فيتوقَّف كل شىء ، ويعود الهدوء والسكون ، حتى تنطفئ الأنوار مرة أخرى ، فيعود الهرج والمرج ..

المدهش أننى كشفت أن ما يحدث ليس مجرَّد هواجس أو هلاوس ، فكل من قضى ليلته فى تلك الحجرة ، مرَّ بالتجربة نفسها ..

هناك شىء ما فى تلك الحجرة إذن ..

شىء لا نفهمه .. ولكننا نشعر به ..

ونخاف منه ..

وما يحيِّر الباحثين عن الأشباح دومًا ، هو أنها لا تقتصر على صورة واحدة ، أو أسلوب محدود ، فهى تارة مجرَّد شعور مبهم ، وتارة أخرى أطياف مرئية ، وتارة ثالثة وسيلة لإبلاغ رسالة ما ، إلى عالم الأحياء ..

ومنذ سنوات قليلة ، كانت لدينا ، فى عالمنا العربى بالتحديد ، واقعة من النوع الأخير ، نشرتها الصحف والمجلات ..

ففى دولة عربية شقيقة ، كان هناك عامل إفريقى ، فى مشرحة كلية الطب ، اشترك مع عاملة أجنبية فى استدراج الفتيات وخداعهن ، ثم قتلهن ، والاستيلاء على مصاغهن ومجوهراتهن ..

وكان العامل وشريكته يذيبان جثث الضحايا ، فى بعض المواد الكيماوية ، المتوافرة فى كليات الطب ، ثم استخدامها كعظام وبقايا ، فى التدريس لطلاب الطب فى المشرحة ..

ولقد ارتكب العامل وشريكته عدة جرائم بشعة ، وكادا ينجوان بفعلتهما ، لولا أن أم إحدى الضحايا أصرَّت على أن ابنتها القتيلة تزورها ، وتؤكِّد لها أن جثتها هناك ، فى مشرحة الكلية ، بعد أن تم قتلها ، والتمثيل بجثتها ..

ولم تقتنع الشرطة بالفعل بهذه الرواية ، إلا أنها ، ومع إلحاح الأم ، واستمرار زيارة الابنة الصريعة لها ، قرَّرت استجواب عامل المشرحة ، الذى لم تعرفه الأم ، أو تلتق به فى حياتها قط ..

واستنكر العامل الأمر فى البداية ، ثم وصفه بالجنون والهلوسة ، ومع ملابسات الموقف ، مالت الشرطة لتصديقه ، وهمَّت بإطلاق سراحه ، لولا أن قال فجأة :

ـ لست أدرى لماذا تهتم الشرطة بفتاة أجنبية ، انتهت مدة إقامتها الرسمية فى البلاد ..

ولما لم يكن أحد قد أشار إلى هذا الأمر ، فقد استوقفت العبارة رجال الشرطة ، فراحوا يستجوبونه مرة أخرى ، ويضيقون عليه الخناق ..

وأصرَّ الرجل على الاستنكار والإنكار ، وأبدى الثورة والغضب ،

فى نفس الوقت الذى أكَّدت فيه الأم أن ابنتها تزورها أكثر ، وتتهم العامل بقتلها ، وتؤكِّد مرة أخرى أن جثتها هناك فى المشرحة ..

وقرَّرت الشرطة تفتيش المشرحة ..

وهناك كانت فى انتظارهم مفاجأة مذهلة ..

بل مفاجآت .

* * *

٤ـ أشباح خمسة نجوم ..

● عندما ذهب رجال الشرطة ، فى إحدى الدول العربية ، إلى مشرحة كلية الطب فى العاصمة ، كان كل ما يأملون فيه هو أن يجدوا دليلاً يدين عاملها الإفريقى ، بقتل فتاة أجنبية ، وإخفاء جثتها هناك ..

ولكن المشرحة كانت تحوى كومة من المفاجآت ..

لقد تم العثور على عشرات من أجزاء جثث قتيلات أزهق ذلك المجرم أرواحهن ، دون رحمة أو شفقة ، ثم راح يقطع أجسادهن ، ويذيبها ، ويبيع عظامهن لطلاب كلية الطب ، بمساعدة عاملة أخرى فى المكان ..

وكاد يفلت بفعلته ، لولا شبح ضحيته الأخيرة ، التى راحت تزور أمها فى منامها ، وتدفعها دفعًا إلى قاتلها ..

وعثرت الشرطة على أوراق الفتيات القتيلات فى حجرة العامل ، وفى مكتبه فى المشرحة ، وعثرت على جواز سفر الضحية الأخيرة ..

ثم كشفت أنها ليست ضحيته الأخيرة بالفعل ..

فآخر ضحاياه كانت شريكته المجرمة نفسها ..

لقد طالبته بالزواج منها ، بعد أن ساعدته فى ارتكاب جرائمه

الحقيرة ، وهددته بإفشاء سره ، وإرشاد الشرطة إلى الذين اشتروا منها مصوغات الضحايا ، فلم يجد أمامه سوى قتلها ، وقطع عنقها ، وتقطيعها فى كلية الطب ، كما فعل مع الأخريات ..

وسقط القاتل الإفريقى ، الذى لم يكن هناك ما يمكن أن يشير إليه أو يوقع به ، سوى ما فعلته ضحيته الأخيرة .. أو ما فعله شبحها ، إن شئنا الدقة ..

وهذه ليست محاولة لإقناعكم بالفكرة ، ولكنها واقعة أخرى مسجّلة ، وفى عالمنا العربى هذه المرة ..

والوقائع المسجّلة للأشباح لا حصر لها ، ولا نهاية لها ، وربما يمكننا اعتبار (أوروبا) هى الموقع الأوّل للأشباح فى العالم ، وبالذات قصورها وفنادقها ..

ولا أحد يدرى لماذا تميل الأشباح ، فى معظم الأحيان ، إلى الظهور فى الفنادق القديمة والقصور العتيقة والفاخرة ..

أهى أشباح راقية ، لا يصح لها أن تظهر إلا فى أماكن تليق بها ؟ أم أن فترة العصور الوسطى قد شهدتْ من المؤامرات والدسائس والمآسى والمذابح ، ما جعلها أفضل مكان لمولد وظهور تلك الأشباح ؟!

لا أحد يدرى !!

ولا نعتقد أن أحدًا سيدرى بصفة قاطعة ، ما دمنا لم نمتلك بعد دليلاً ماديًّا حاسمًا وقاطعًا ..

وربما يتصوّر البعض أن الأشباح لا يمكنها أن تساعدنا فى هذا الشأن ، ولا يمكنها أن تمنحنا دليلاً على وجودها ، بحكم تكوينها غير المادى ، أو طبيعة عالمها الذى يمنعها من التأثير فى عالمنا مباشرة ..

وربما يعود هذا التصوّر إلى أننا لم نتحدّث ـ حتى الآن ـ إلا عن أشباح هادئة ، بسيطة ومسالمة ، تظهر فقط لإعلان وجودها ، أو إبلاغ رسالة ، أو الاستعراض أمام آلات التصوير ..

ولكن الواقع أن هناك طرازًا من الأشباح ، لم نتحدّث عنه بعد ..

طراز من الأشباح الشقية ، والمتعبة ..

والمشاغبة أيضًا ..

ففى كتابه عن هذا الأمر ، سجّل الكاتب البريطانى المتخصّص (مايكل جوس) ما يزيد على ألف واقعة ، من وقائع الشغب الشبحى هذا ..

ومن أشهر مشاغبات الأشباح ، حوادث إلقاء الأحجار ، أو بعثرة الأثاثات المنزلية ، أو حتى إشعال النيران فيها ..

ففى أوائل الثمانينات ، من القرن العشرين ، وفى شارع (ثورنتون) الهادئ ، فى ضاحية مدينة (برمنجهام) الإنجليزية ، فوجئ أصحاب المنازل بوابل من الحجارة ينهال عليهم بقوة ..

أحجار بسيطة عادية ، من النوع الذى يمكنك أن تجده فى الحدائق والشوارع ، وفى كل حديقة عامة ..

ولقد كانت هذه الأحجار تنهال بغتة ، ودون سابق إنذار ؛ لتحطّم النوافذ ، والأسقف ، والمداخن ، وتحيل حياة السكان إلى قطعة من العذاب والجحيم ، قبل أن تتوقف فجأة أيضًا ، ودون سابق إنذار ..

ولما لم يتمكّن سكان منازل شارع (ثورنتون) من رؤية أو رصد ما يرميهم بالحجارة ، فقد أبلغوا الشرطة ، التى نصبت عددًا من الكمائن فى الشوارع ووعدت بحسم الأمر خلال أسبوع واحد ..

ولكن الكمائن لم توقف عملية قذف الأحجار هذه ، ولا حتى ليلة واحدة .. لقد ظلت الأحجار تنهال ، وتحطّم النوافذ والأثاثات ، وحتى الأسقف ، ورجال الشرطة يجرون هنا وهناك ، فى محاولة يائسة للبحث عمن يقذفها ..

وفى حديث تليفزيونى ، قال أحد رجال الشرطة : إن الأحجار كانت تندفع أمام عينيه ، كما لو أنها تنبت من الفراغ ، لتحطّم نوافذ منازل سكان شارع (ثورنتون) المساكين ، دون أن يظهر من يقذفها ..

أو ما يقذفها .

العملية التى تعهّدت الشرطة البريطانية بإنهائها فى أسبوع ، استغرقت أكثر من عامين كاملين ، واحتاجت إلى أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة تقرير مطبوع ، يحمل الخاتم الرسمى ، قبل أن يعترف رئيس الشرطة فى (برمنجهام) ، المفتش (تورلى) ، بأنه ورجاله عاجزون عن حل المشكلة ، أو كشف المسئول عنها ..

ورحل رجال الشرطة ، يجرّون أذيال الخيبة ، وأسرع سكان الشارع لوضع أسلاك معدنية قوية على نوافذ منازلهم ؛ لاتقاء المزيد من الهجوم الشبحى الغامض ..

ولكن الأحجار توقّفت تمامًا عن الانهمار عليهم ، بعد رحيل فريق الشرطة !!

تمامًا كما لو أن الأشباح العابثة تعلن أن هذا كان ما يعنيها فى الواقع ..

أن تهزم رجال الشرطة شر هزيمة ..

والعجيب أنه طوال عامين أو يزيد ، لم يصب مخلوق واحد بتلك الأحجار ، التى انهالت على المنازل ..

فقط أصيبت النوافذ ، والجدران ، والأسقف ..

وهذا على عكس ما فعلته الأشباح المشاغبة بحالة أخرى ، سجلها الباحث الإنجليزى الشهير والمحترم (هارى برايس) ، فى ربيع عام ١٩٢٦م ..

ففى ذلك العام ، سافر (برايس) شخصيًا إلى العاصمة النمساوية (فيينا) ؛ ليلتقى بالفتاة (اليانور توجان) التى كانت ضحية مسكينة للأشباح ..

ففى أحوال كثيرة ، ودون أية مقدمات ، وفى وجود شهود عيان ، كانت الفتاة المسكينة تطلق أحيانًا صرخات مباغتة ، قبل أن تظهر على جسدها آثار خدوش ، وخمش أظفار ، وعضات أسنان أيضًا ..

الجميع لم يرها تفعل هذا بنفسها ، كما أن مقياس عضات الأسنان كان يفوق مقياس أسنانها الصغيرة بكثير ..

وكل تلك الإصابات كانت تدمى ، وتلتهب ، وتتحوّل إلى جروح مؤلمة متورّمة ، مهما تم تطهيرها أو علاجها ..

ولقد حدث هذا فى وجود (برايس) شخصيًا ، وأمام عينيه ، على الرغم من أنه قد وضع الفتاة تحت رقابة صارمة ، تضمن له عدم استطاعتها فعل هذا بنفسها قط ..

ولم يملك (برايس) تفسيرًا لما رآه بعينيه ، فاكتفى بتسجيله ، وتركه لمن بعده ، من المهتمين بالأمر ..

ولقد التقط الباحث (فرانك سميث) واقعة (برايس) ، وحاول أن يعثر فيها على تفسير يعاونه على حل لغز واقعة (شيرلى هيتشينز) ، التى عايشها بنفسه ..

و(شيرلى) هذه فتاة عادية بسيطة ، كانت تعمل فى أحد متاجر (لندن) ، فى منتصف عام ١٩٥٦م ، عندما بدأت الأشباح تعبث معها وبها فجأة ..

ففى كل ليلة ، كانت الأشباح تجذب الغطاء عن جسدها ، وتعبث بأثاث حجرتها ، وتلقى ملابسها خارج دولابها ، وتحرمها من النوم الهادئ المطمئن ، حتى كادت تنهار تمامًا ، مما دعاها إلى إبلاغ والدها بالأمر ، وترجوه أن يساعدها فى إنهاء عذابها الليلى المستمر ..

وفى البداية ، استنكر الأب ، وتصوّر أن ابنته قد أصابها جنون ما ، إلا أنه دعا شقيقه لمعاونته ، وقرّر الاثنان أن يقضيا ليلتهما ساهرين ، فى حجرة الابنة ، فى محاولة لكشف الأمر ..

ولقد مضى الشطر الأوَّل من الليل هادئًا ، قبل أن تصرخ (شيرلى) فجأة ، قائلة :

- إنهم هنا .. إنهم يجذبون الغطاء من فوقى .

وأسرع الأب والعم يمسكان الغطاء ، ويجذبانه فوق (شيرلى) إلا أنهما فوجئا بقوة هائلة تجذبه منهما ، فى الاتجاه المضاد ، حتى إنهما استخدما كل قوتهما للإبقاء عليه فى مكانه ، إلى الحد الذى جعلهما يلهثان فى قوة ، و ...

وفجأة ، صرخت (شيرلى) مرة أخرى ، عندما راح جسدها كله يرتفع فى الهواء ، أمام أعين الرجلين الذاهلة المذعورة ..

راح يرتفع ، ويرتفع ، ويرتفع ، حتى بلغ سقف الحجرة تقريبًا .

ثم هوى فجأة إلى الفراش ..

وجاء (فرانك سميث) ،وشاهد واقعة مماثلة فى حجرة (شيرلى) ، التى فحصها بنفسه ، مع مجموعة من المتخصصين ، قبل الأحداث مباشرة ..

وسجَّل (فرانك) القصة ، وضاعف من دهشتنا وحيرتنا ألف مرة ..

والشغب الشبحى ، حتى هذه المرحلة ، مازال فى حدود الاحتمال ..

ولكنه فى مرحلة أخرى ، كان مدمرًا تمامًا ، كما حدث هنا ، فى عالمنا العربى ..

وبالتحديد فى (مصر) .

★ ★ ★

٥ـ نارودخان ..

● **المكان :** منزل بسيط ، فى حى شعبى ، فى مدينة (القاهرة) الكبرى ، عاصمة مصر ، حيث تقيم أسرة عادية ، تتكوَّن من أب موظف ، وأم ربة منزل ، وثلاثة أبناء ، فى مراحل التعليم المختلفة ..

والحدث : عجيب للغاية ، ومسجل رسميًا ، فى محاضر الشرطة ، على الرغم من حيرة الضباط ودهشة الجميع ..

فعلى الرغم من أن حياة تلك الأسرة كانت تمضى على نحو هادئ معتاد ، بكل ما يحمله من صعوبات العيش التقليدى ، فالأب يكدح ويكد طوال النهار ، فى عمله الوظيفى صباحًا ، وفى عمل إضافى مسائى ، والأم تسعى للاقتصاد والتدبير ، وفى تدبير أفضل معيشة لأبنائها ، ومساعدتهم فى استذكار دروسهم ، و...

وفجأة ، بدأت الأحداث العجيبة ..

والمدمرة ..

فبدون سابق إنذار ، بدأت أوعية المطبخ وأوانيه تتحطَّم ، وبصوت عنيف للغاية ، كما لو أن أحدهم ينتزعها من مكانها ، ويلقى بها أرضًا بكل قوته ..

فى البداية ، اتهم الأبوان أولادهما ، ثم لم يلبث الكل أن انتبه إلى أن هذا يحدث أحيانًا ، عندما يكون الكل معًا ..

ثم بدأت عملية التحطيم تنتقل إلى خارج المطبخ ..

أدوات المنزل ، والأثاثات ، وحتى الأجهزة الكهربائية بدأت تتحطم بمنتهى العنف ، وفى كل وقت ، وكل حجرة ..

وبدأ الذعر يدب فى قلوب أفراد الأسرة ، وينتقل منها إلى قلوب أصدقائهم وأقاربهم ، وجيرانهم الذين شهدوا عمليات التحطيم تحدث أمام عيونهم ..

وذات مرة ، وأمام عيون الجميع ، ارتفع التلفاز من فوق منضدته ، وهوى على الأرض بمنتهى العنف ، وتحطّم تمامًا ..

وهرع الجميع خارج المنزل ، بكل رعب الدنيا ، واتجهوا بربطة واحدة إلى قسم الشرطة ، بحثًا عن حماية القانون ..

وأمام كل هذا العدد من الشهود ، وعلى الرغم من عدم اقتناعه شخصيًا ، أرسل مأمور القسم ضابط المباحث ؛ للتحقيق فى الواقعة ..

وذهب ضابط المباحث الشاب ، مع عدد من رجال الشرطة إلى منزل الأسرة المنكوبة ، وهناك وجدوا أمامهم مفاجأة عجيبة .

لم يكن التلفاز وحده محطمًا ، وإنما كل الأكواب والأطباق ، وحتى مصابيح الجدران .. كومة من الحطام كانت موضوعة فى منتصف صالة المنزل تمامًا ، كما لو أن بعضهم قد جمعها بعناية ؛ لتصبح فى مواجهة الداخل ، بمثابة تحد مستفز ..

ولولا الشهود ، الذين زادوا عن الدستة ، لتصوّر ضابط المباحث الشاب أن أفراد تلك الأسرة البسيطة يحاولون السخرية منه ..

ولكنه اتخذ بالفعل كل الإجراءات اللازمة .

فحص المكان كله ، بمداخله ومخارجه ، ورفع البصمات عن قطع الحطام ، واستجوب الشهود واحدًا واحدًا ، دون أن يُسفر كل هذا عن أدنى شىء ..

أما سكان المنزل ، فقد اضطروا للعودة إلى منزلهم ؛ نظرًا لأنه لا يوجد مكان آخر ، يمكنهم اللجوء إليه ..

وهنا ، انتقلت الأشباح المشاغبة إلى مرحلة جديدة ..

مرحلة بالغة العنف والخطورة ..

فجأة ، اشتعلت النيران فى أحد مقاعد حجرة الجلوس ، فى وجود الجميع ، وأسرع الأب يطفىء المقعد الذى لم تكد نيرانه تخبو ، حتى اشتعلت فجأة فى مفرش مائدة السفرة ..

وتعاون الكل لإطفاء الحريق هذه المرة ..

ولكن النيران اشتعلت فى مكان ثالث ..

ورابع ..

وخامس ..

ولساعة كاملة ، ظلّ أفراد الأسرة يجرون ، من مكان إلى آخر ، فى محاولة لإطفاء النيران هنا وهناك ، حتى شملهم التعب ، واليأس ، والرعب ..

ثم توقّف الأمر كله دفعة واحدة ..

وعلى الرغم من هذا ، فلم يغمض للأسرة كلها جفن واحد ، حتى صباح اليوم التالى ، وما إن أعلنت عقارب الساعة التاسعة ، حتى اصطحب الأب أسرته كلها إلى قسم الشرطة ، والتقى بضابط المباحث الشاب ، وحرّر محضرًا رسميًّا بالواقعة ..

ومرة أخرى ، اصطحبه ضابط المباحث إلى المنزل ..

ولكن هذه المرة كانت تختلف تمامًا عن سابقتها ..

فالأشباح انتظرت حتى وصل ضابط المباحث ورجاله ؛ لتنتقل التحدّى إلى مرحلة جديدة وخطيرة ..

فبعد خمس دقائق من وصول الكل ، اشتعلت النيران فجأة فى فراش الأب والأم ..

وعندما هرع الرجال لإطفائها ، اشتعلت مائدة الطعام كلها ..

ثم المقاعد ..

والستائر ..

وخلال سبع دقائق فحسب ، كان المنزل كله يشتعل ..

ومع يأسهم وحيرتهم وخوفهم ، تراجع الكل خارج المنزل ، واتصل ضابط المباحث بشرطة الإطفاء ، التى هرعت إلى المكان ، وأطفأت النيران ..

ولكن بعد أن تحوّل المنزل كله إلى خراب ..

وبغض النظر عن مصير الأسرة المنكوبة المسكينة ، فقد عاد ضابط المباحث الشاب إلى القسم فى حالة ذهول وانزعاج ، وسجّل الواقعة فى محضر رسمى ، أكّد فيه أن النيران قد اشتعلت لسبب مجهول ..

وسرعان ما أيّده تقرير خبراء الحريق ، الذى أشار إلى أنه لا يوجد سبب منطقى واحد لاشتعال النيران ، التى لم تحدث حتمًا بفعل فاعل .. من البشر طبعًا .

وربما كانت هذه هى أكثر حوادث العنف الشبحى المسجّلة ، فى عالمنا العربى كله ..

بل وربما كانت واحدًا من الحوادث النادرة ، التى تسعى فيها الأشباح إلى الاعتداء على شخص ما ، أو عائلة ما ، بكل هذا العنف الغاضب ..

العجيب فى القصة كلها أن المنزل ظل مغلقًا لعام أو عامين ، بعد أن انتقلت منه العائلة المنكوبة إلى منزل والدة الأم ، وبعدها تم تأجيره إلى أسرة أخرى ، أزالت آثار الحريق ، وأعادت طلاء المكان ، وتنظيمه ، وإصلاحه ، وما زالت تعيش فيه حتى يومنا هذا ، دون مشكلات ، أو أشباح ، سواء أكانت مشاغبة أو مسالمة .

فما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

البعض ، من دارسى ظواهر الأشباح ، يقول : إن ظهورها يرتبط دومًا بفرد ما من المكان نفسه ..

فرد لديه قدرة طبيعية خاصة على الاتصال بعالم الأشباح ..

ودون حتى أن يدرى بامتلاكه لهذه القدرة ..

ولهذا - وفقًا لرأيهم - نجد أن الأشباح تتركز دومًا حول شخص ما ، أو أسرة ما ..

ولكن تلك الأسرة المصرية المنكوبة انتقلت إلى منزل آخر ، ولم تلحق بها الأشباح فيه ، على الرغم من أن أفرادها ظلوا بنفس عددهم ، ولم ينقص منهم أحد ..

ومنزلهم القديم سكنته أسرة أخرى ، لم تشهد أية ظواهر فوق طبيعية ..

التفسير إذن هو أن حدوث الظاهرة يحتاج إلى فرد بعينه ، فى مكان بعينه ..

لا بد إذن من حدوث ذلك الالتقاء ، بين الإنسان والمكان ، لتخرج الظاهرة فوق الطبيعية إلى الوجود ، وتتحول إلى حالة محسوسة .. أو ملموسة ..

أو حتى مدمرة ..

وهذا مجرد افتراض آخر ..

افتراض قد يبدو منطقيًا فى حالتنا هذه ، إلا أنه لا يكفى لتفسير كل حالات ظاهرة الأشباح هذه ؛ نظرًا لاختلافاتها المدهشة ..

فالأشباح لا تقتصر على الأفراد والظواهر ، بل وربما تمتدّ إلى الأشياء أيضًا .. وبالذات السفن ..

فالبحارة القدامى نقلوا إلينا عشرات القصص والروايات عن سفن تعجز عن مواجهة العواصف القاسية ، فتنهار وتغرق فى قاع البحار والمحيطات ..

ولكنها لا تختفى أبدًا..

إنها تظل تجوب البحار ، وتمخر المحيطات ، وتعلن عن وجودها ، وتشاهدها وترصدها عشرات ومئات السفن والبواخر ، وهى تسير وسط الضباب والدخان ..

ثم تختفى فجأة ، دون أدنى أثر ..

وهذه ما يطلق عليه البحارة اسم السفن الشبح ..

مئات رأوها ، ورصدوها ، وسجلوها ، وكتبوا مؤلفات عنها ، وتركوا لنا شهادتهم عن رؤيتها ، فى أكثر من سجل بحرى ..

ولكن مع المشكلة نفسها ..

لا دليل ماديًا واحدًا ..

ولكن هناك وقائع شبحية يمكن أن يشيب لها شعر الوليد ، على

الرغم من أنها لا تسبّب أية أضرار مباشرة ، أو حتى غير مباشرة للبشر ، وعلى رأس تلك الوقائع ما حدث وتم تسجيله رسميًا ، في جزيرة (باربادوس) ، إحدى أجمل جزر (الكاريبي) ، وبالتحديد في مقبرة عائلة (تشيس) ..

فواقعة (تشيس) أو (باربادوس) هذه مدهشة ، ومثيرة ، ومخيفة ..

بحق .

★ ★ ★

٦ ـ مقبرة الأشباح ..

● من بين كل جزر البحر (الكاريبي) ، تعتبر جزيرة (باربادوس) هي الأجمل بلا منازع ، على الرغم من انتشار أعمال السحر والشعوذة فيها ، وبالذات تلك الأعمال البدائية ، المعروفة باسم (فودو) ..

ولأنها جزيرة جميلة ، كان من الطبيعي أن تجذب إليها بعض الأغنياء ، الذين اتخذوا منها مستقرًا ، ومن خيراتها مصدرًا للرزق الوفير ..

ومن بين هؤلاء الأثرياء كان (جيمس إليوت تشيس) ، الذي اشتهر طوال حياته بالفوضى والصرامة ، والرغبة في إيذاء الآخرين ، وإشاعة الاضطراب في حياتهم دون مبرّر ..

وعند موت زوجته ، قرّر (جيمس) أن يقيم مقبرة خاصة لأسرته ، فقام باستغلال ساحة كنيسة المسيح البسيطة ، ليحفر فيها مقبرة واسعة ، جعل لها بابًا من الحجر ، وحجرة انتظار ، ثم حجرة دفن عائلية ، كانت زوجته أوّل من يرقد فيها ..

ولقد ضمّت هذه المقبرة جثتين أخريين ، منذ بناها (جيمس) ، ووضع عليها شاهدًا أنيقًا من الرخام ، يحمل اسم (عائلة تشيس) ..

وعندما مات (جيمس) نفسه ، تم وضعه في تابوت كبير أنيق ، وفُتحت مقبرة أسرته ، ليوضع التابوت في ركنها ، في الرابع عشر من مايو ، عام ١٧٢٤م ..

وعندما تم دفن (جيمس) ، كانت المقبرة مرتبة ومنظمة ، وتحوى توابيت زوجته وعمه وابنته ، المرتبة إلى جوار بعضها ..

وبموت (جيمس) ، أصبح (توماس تشيس) هو المالك الفعلى للأرض والمقبرة ، التى احتفظت بالاسم نفسه ..

وفى عام ١٨٠٧م ، وعند دفن تابوت السيدة (توما سينا جودار) ، فوجئ الكل بأن تابوت (جيمس) قد اختفى تمامًا ، على الرغم من أنه لا يوجد للمقبرة سوى مدخل واحد ، كان مختومًا منذ وفاته ، وحتى فتح المقبرة مرة أخرى ..

ولقد بحث الكل عن التابوت وصاحبه دون جدوى ، ثم انتهى بهم الأمر إلى ترك مكانه خاليًا ، ووضع تابوت السيدة (توما سينا) فى موضعه ، محافظة على الترتيب ..

ولكن هذا لم يكن نهاية المطاف ، ففى أغسطس ١٨١٢م ، تم فتح المقبرة مرة أخرى ، لوضع تابوت السيد (توماس) نفسه ، الذى مات بأزمة قلبية ، و ...

وكانت أمام الجميع مفاجأة مذهلة ..

فالمقبرة كانت فى حالة فوضى عارمة مخيفة ..

التوابيت كلها متناثرة فى المكان ، وأحدها ملقى عند الجدار المقابل ، واقفًا على قاعدته ، ومستندًا إلى الجدار ، كما لو أن أحدهم قد حمله ، وألقاه عبر المقبرة بكل قوته ..

ولكن التابوت كان معدنيًا ثقيلاً ، احتاج إلى أربعة رجال أشداء ، لحمله وإعادته إلى موضعه ، وإلى فريق من الرجال لإعادة ترتيب المقبرة ، ووضع التوابيت فى أماكنها ، ليستقر فى نهايتها تابوت السيد (توماس) ..

وفى يوليو ١٨١٩م ، توفيت ابنة (توماس) فتم فتح المقبرة لوضع تابوتها المعدنى الثقيل ..

وكانت المفاجأة ذاتها ..

المقبرة فى حالة فوضى عارمة ، وكل التوابيت الثقيلة متناثرة هنا وهناك ، وبعضها موضوع فوق البعض الآخر ، فى حالة يستحيل أن تحدث ، دون فريق من الرجال الأقوياء الأشداء ..

ولكن كل شىء كان يؤكِّد أن المقبرة لم يتم اقتحامها ، بأى حال من الأحوال ، فأرضيتها لا تحمل آثار أقدام دخيلة ، وقفلها فى موضعه لم يمس ، بل وأصابه بعض الصدأ أيضًا ..

أما تابوت السيِّد (توماس) بالتحديد ، فقد كان فى حالة مزرية للغاية ..

كان ملقى على جانبه ، وغطاؤه مفتوح محطم ، وجثة (توماس) ملقاة خارجه ، كما لو أن أحدهم قد دفعها بغضب وازدراء ..

وعلى الرغم من حيرتهم وخوفهم ، تعاون الرجال على إعادة جثة توماس إلى تابوته ، وإصلاح الغطاء ، وإعادة كل شىء إلى مكانه ، ليحتل تابوت ابنة (توماس) مكانه وترتيبه الجديد ..

وفى هذه المرة ، ومع إغلاق المقبرة ، سرت فى الجزيـرة كلهـا شائعة مخيفة جديدة ..

شـائعة تقول : إن شبح (جيمس إليوت تشيس) قد عـاد ليشيع الفوضى ، كما كان يفعل فى حياته ، ولكنه اختار المقـبرة هدفًا لـه هذه المرة ، باعتبار أنها مقبرته ، التى بناهـا بأموالـه ، ويحق لـه أن يفعل أى شىء بها ، حتى بعد مماته ..

ولكن لـورد (كومبرمـير) حـاكم (باربـادوس) لم يقبـل بهـذا التفسير ، وأصرَّ علـى أنـه يوجد تفسير منطقـى لكل مـا يحـدث ، وباعتباره عنصريًّا ، أشـار إلـى احتمـال أن يكون زنـوج الجزيـرة وراء كل هذا ، انتقامًا مما فعله (جيمس تشيس) بهم وبـأجدادهم فى حياته ..

ومن هذا المنطلق ، بدأ الحاكم حملة تحقيقات واسعة ، استجوب خلالها معظم سكان الجزيرة ، وأشرف بنفسه على حملة بحث عن أنفاق خفية ، أو سراديب سرية ، أو مداخل غير ملحوظة للمقبرة ، ثم أشرف على تنظيـم التوابيـت والعنـاية بها ، ثم ختـم بـاب المقبرة ، ووضع عليه بعض أختـام وعلامات سرية ، ليتعرَّف منها على أى عبث مستقبلى ، ثم استقرَّ علـى مقعد الحـاكم فـى ارتيـاح وثقـة ..

وفى ١٨ أبريل ١٨٢٠م ، حدثت وفاة جديدة فى عائلة (تشـيس) ، فأصرَّ الحاكم على حضور عملية فتح المقبرة بنفسه ، وفى حضور عدد من أصدقائه ، وعلـى رأسـهم الكـاتب الشـهير (تشـارلز كنجزلـى) الذى سجل الواقعة بنفسه ..

وقبل فتـح المقـبرة ، تـأكَّد الحـاكم أن كـل شـىء كمـا هـو ، وأن علاماته السـرية تؤكِّد عدم فتـح المقـبرة أو العبث بهـا ، كمـا أن الأعشاب التى نمت حول المدخل كانت تحسم هذه النقطة تمامًا ..

وتم فتح المقبرة ..

واتسعت عيون الجميع فى ذهول مذعور ..

فباستثناء تابوت (تومـاس تشيس) ، كانت المقبرة فى حالة من الفوضى ، التى وصفها (كينجزلى) بأنها فوضى وقحـة ، إذ كـانت التوابيت كلها ملقاة فى ركن المقبرة ، بعضـهـا فـوق البعض ، دون أى ترتيب أو تنسيق ..

ولقد فحص (كينجزلـى) المقبرة بنفسـه ، قبـل أن يسجِّل فـى مذكراته أنه لا يـوجد دليل واحـد على التـواطـؤ أو الخـداع ، وأن مـا حـدث فـى المقـبرة لا يمكن تفسيره منطقيًّا ، بـأى حـال مـن الأحـوال ..

وردّد السكان المحليون شائعة شبح (جيمس تشيس) بقوة أكبر، مما أثار حفيظة الحاكم، الذى اتخذ قرارًا صارمًا هذه المرة ..

ففى الصباح التالى، تم إخراج كل التوابيت، من مقبرة عائلة (تشيس)، ليقوم البعض بدفنها مستقلة، وإهالة التراب عليها، ثم قام الحاكم بالإشراف على عملية ردم المقبرة تمامًا ..

وهكذا انتهت إلى الأبد قصة مقبرة عائلة (تشيس)، أو مقبرة (باربادوس)، دون أن يتم العثور على تابوت (جيمس تشيس) قط ..

وفى هذه القصة الأخيرة لم ير أى مخلوق شبحًا فى المنطقة كلها، ولكن العشرات رأوا فوضى المقبرة ..

وسجلوها فى أوراق رسمية ..

وهكذا نجد أمامنا صورة جديدة من صور الأشباح، وظاهرة عجيبة من ظواهرهم، التى كانت ومازالت تثير خوفنا، فى كل زمان ومكان ..

والمعارضون لظاهرة الأشباح يؤكدون دومًا أنها مجرّد ظواهر علمية، لا يمكننا أن نفسرها، فى ظل علومنا الحالية ..

ظواهر تفوق حدودنا العلمية، وليس حدود منطقتنا أو إدراكنا فحسب ..

ووفقًا لتفسيرهم هذا، لن يدهشنا أن يظهر علم جديد فى المستقبل، باسم (علم الشبحيات) مثلاً، وأن تصبح له قواعد وأسس ونظريات، ووسائل تقنية حديثة؛ لاستدعاء الأشباح ومعرفتها، وربما لاستجوابها أيضًا، فى جرائم العبث والمشاغبة، وتدمير ممتلكات الغير ..

من يدرى!

فكل ما يبدو مغرقًا فى الخيال اليوم، يمكن أن يصبح حقائق مجرَّدة فى المستقبل القريب أو البعيد، تمامًا مثلما حدث لعشرات الأمور الأخرى ..

المشكلة الوحيدة، فى موضوع الأشباح هذا، هو أنه لا توجد له قواعد واضحة، أو علامات محدودة، يمكن اعتبارها طرف خيط، لبدء دراسة علمية حولها، على الرغم من أن الباحثين قد استخدموا فى سبيل هذا كل تقنية قديمة وحديثة، من آلات التصوير العادية، إلى تلك التى ترصد الأطياف تحت الحمراء، ومن أجهزة الاستماع الدقيقة، إلى أجهزة الرصد الإليكترونية، المتصلة بأجهزة كمبيوتر شديدة الحساسية ..

ولقد تم تسجيل آلاف الأمور، التى يمكن اعتبارها أدلة دامغة، على وجود ظاهرة ما، نعرفها نحن بأسماء شتى ومسميات مختلفة ..

ظاهرة تفوق إدراكنا المـادى والحسى ، على نحو عجيب ، ومثير ، ومخيف أيضًا ..

وبعد كل ما استعرضناه من وقائع مسجّلة ، حول تلك الظـاهرة ، لم يعد أمامنا سـوى أن نختم هـذه الدراسـة بالسـؤال نفسـه ، الذى بدأناها به ..

هل تؤمن بوجود الأشباح ؟!

هل ؟!

★ ★ ★

تمت بحمد الله